**المحاضرة 06**

**الاستشراق واللغة العربية**

لقد تطور الدرس اللغوي تطورا ملحوظا في مناهجه وأساليب بحثه، حيث أفادت العربية من الجهود الاستشراقية، لكن في إطار محدد, إذ فيها ما يؤخذ, ومنها ما يرد، فقد كان الهدف من وراء هذه الدراسات الاستشراقية إخضاع الشعوب المستعمرة، وقد اتسعت مجالات الاستشراق وبالخصوص مع القرن التاسع عشر إذ انصب الاهتمام على الفكر العربي الإسلامي بمحاولة قولبته من جديد.

وتنوعت دراسة المستشرقين إذ مست معظم مجالات الأدب العربي من شعر، ونثر, ومقامات... وغيرها، كما اهتموا بدراسة اللهجات واللغات في البلاد العربية, وبالخصوص مجال النحو العربي, وتعليم قواعده، فانهالوا على التراث اللغوي العربي درسا, وتحليلا, لإبراز مأخذه, ووسمه بالغموض, سواء ما تعلق بتقديم المادة ,أو التأثر بالمنطق الأرسطي وغير ذلك, متناسين أن التراث اللغوي العربي يمثل منجزا عربيا وإسلاميا متميزا، وخير دليل على ذلك كثرة دارسيه، ومما زاده حضورا تفسيره الظواهر العربية, وتقعيده لها باتساق كبير, لذا سنحاول رصد بعض آراء المستشرقين المتعلقة بمجال النحو العربي والتي تم تسليط الضوء عليها من قبل اللغويين المحدثين, متأثرين في ذلك بالمستشرقين، والتي عادت على اللغة العربية بالخير الكثير، وهي كالآتي:

**التشكيك بأصالة النحو العربي:**

شكّك بعض المستشرقين في أصالة الأدب العربي وبوجه خاص النحو العربي، وقالوا بأن جذور هذا العلم ترجع إلى اللغة اليونانية والسريانية، وإنما أخذه العرب من اليونان والرومان, خلال ترجمة الآثار اليونانية, وزعموا أن ارتباطاً علمياً وفكرياً كان دائراً بين علماء علم النحو العربي مثل: الخليل بن أحمد وأبي الأسود الدؤلي من جهة، ويعقوب الرّهاوي وحُنين بن اسحاق, وعلماء علم النحو اليوناني ـ من جهه أخرى, والقصد من خلق هذه الشبهة إنكار حضارة الإسلام والعرب، وبقاء الحضارة اليونانية كحضارة أولى في العالم. ومن جملة هؤلاء المستشرقين الذين طوّروا هذه الفكرة ووسعوها هم: إرنست رينان، ميركس وهرفمان ووِرستِك.

ولكن بعض المستشرقين أنفسهم أثبتوا أصالة النحو العربي وعلى رأسهم جرار تروبوا, أما أو تُروبو المستشرق الفؤنسي ــ فهو الذي ردّ هذه النظرية، واستند على أدلة تاريخية؛ منها:

**أولاً:** إن حركة الترجمة بدأت في العصر العباسي الثاني، وعلم النحو كان قد بدأ قبل سنين.

**ثانياً:** علماء علم النحو كانوا على صلة دائمة مع الفقهاء، ولهذا نجد أكثر المصطلحات الفقهية موجودة في النحو.

وأما نيكلسون الذي يعدّ من كبار المستشرقين, اعترف بأن علم النحو وضعت بداياته في العصر الإسلامي الأول بفكرة الإمام علي, وعلى يد أبي الأسود الدؤلي

ورغم ارتباط نشأة النحو بالدراسات القرآنية لأجل حفظ القرآن الكريم من اللحن والخطأ, إلا أن بعض المستشرقين شككوا في أصالته, بدعوى أنه تأثر بالفكر اليوناني عن طريق ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، علما أن القواعد النحوية العربية وضعت بأيدي القراء الأوائل, قبل عملية الترجمة، لان هذه الأخيرة بدأت مع أواسط العصر العباسي، وانساقت وراء آرائه ثلة من علماء اللغة المحدثين, أقروا بأنه فيه جوانب معينة تصل النحو العربي بمنطق أرسطو نحو القياس والتعليل, واستخدام المقولات ... الخ, ولقد فند رأيهم عبده الراجحي قائلا: "... هذه العناصر المحددة التي تختص بالدرس النحوي اختصاصا مباشرا..., التعريف عندهم لا ينطبق على التعريف الأرسطي, ولا يظهر من كتاباتهم أنهم كانوا على معرفة قوية، ودليل ذلك أن كتاب سيبويه نفسه يكاد يخلوا من التعريف على وجه العموم، ونتبين ذلك من خلال مايلي :

**1 / تقسيم الكلم عند القدامى:**

يكاد يجمع النحاة القدامى على أن الكلم في العربية ينقسم إلى ثلاثة أقسام: اسم, وفعل, وحرف، وقد جاء ذلك على لسان كل من العلماء القدامى,  غير أن هناك من أضاف إلى الاسم والفعل والحرف, قسما رابعا, هو اسم الفعل, وسمي ب "الخالفة"، لقد اختلف النحاة في تحديد أقسام الكلام باختلاف الأسس التي رعاها كل منهم في التقسيم، حيث هناك من اعتمد الأسس الشكلية، وفيهم من اعتمد الأسس الوظيفية, أو ما يقابل عند المحدثين المعاني الوظيفية، ومنهم من جمع بينهما.

يرى بعض من المستشرقين ومنهم اینو لیتمان (Litmann) رأيا في النحو العربي فيقول : "...كما تنبت الشجرة في أرضها، كذلك نبت علم النحو عند العرب ، أما من جانب الاهتمام بالبنية الشكلية للجملة، فيمكننا القول أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من نهج هذا النهج، ونحا نحوه تلاميذه أمثال سيبويه, والكسائي.., وغيرهما, إلى غاية عبد القاهر الجرجاني الذي عمد إلى استنباط القواعد من علاقة التركيب بالمعنى, ونجد فكرة التعليق لديه يمكن أن تكون بديلا عن فكرة العامل النحوي, باعتبار أنها تجسد العلاقات السياقية بين أجزاء التركيب الكلامي: (الإسناد، التخصيص، النسبة التبعية و المخالفة), فهي قرائن التعليق المعنوية، (الإعراب، الرتبة، الصيغة، التضام الربط، المطابقة، هي قرائن التعليق اللفظية.

**2 / قضية الإعراب:**

لقد اهتم النحاة العرب بقضية الإعراب اهتماما بالغا، نظرا لرفضهم اللحن، والدليل على ذلك تلك المناظرات التي قاموا بها، وألفوا فيه كتبا, إلى جانب ارتباط العروض بالإعراب, وغير ذلك مما يثبت أصالة الإعراب عند العرب، أما النحاة فقد ركزوا عليه نظرا لما له من دلالة في توضيح المعنى, وقال الزجاجي بهذا الشأن "إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها دلالة على هذه المعاني, بل كانت مشتركة, جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني" أي من خلال الإعراب يمكننا التمييز بينها.

لقد تناول المستشرقون هذا الموضوع منكرين دور الإعراب، ودعا أهل التيسير فيما بعد إلى إلغائه, متأثرين بآراء المستشرقين بحجة أن لهجات الحديث عند العرب كانت منذ أقدم عصورها غير معربة، أي خالية من مظاهر الإعراب، فقروا بذلك بصعوبة النحو العربي بسبب الإعراب، وأنه موجود فقط في لغة الآداب, شعرها وخطابته,ا ونثرها، وعلى رأسهم المستشرق اليهودي كوهين قائلا: - بما معناه - إن هذه القواعد المتتبعة والدقيقة من الصعب جدا مراعاتها في الحديث، وربما يتعذر تطبيقها, لأنها تتطلب قدرا كبيرا من الانتباه، وملاحظة عناصر الجملة, وعلاقاتها بعضها ببعض, ولا يمكن مراعاة ذلك في لهجات الحديث، لأن لهجات الحديث تميل إلى السهولة، وتتوخى اليسر، وتؤثر الإيجاز.

وعلى إثر هذه الدعوة للمستشرقين حول صعوبة الإعراب وضرورة تركه، قامت محاولات عديدة لتيسره وتقريبه من الناشئة, ،منتقدين المنهج الذي اتبعه النحاة قديما لدراسة الظواهر النحوية,

وهنا نجد إبراهيم أنيس ينكر أن تكون للحركة الإعرابية دلالة باعتباره إياها مجرد وسيلة تساعد المتكلم على وصل الكلام بعضه ببعض، فهو يقر بوجود مستويين من مستويات اللغة: مستوى معرب, وهو الذي اهتم به النحاة، ومستوى غير معرب يستعمله عامة الناس ، أو عامة العرب قائلا: "فالإعراب كما نعرفه لم يكن إلا مسألة تواضعية بين الخاصة من العرب, ثم بين النحاة من بعدهم، ولم يكن مظهرا من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب" وهذا هو شأن اللغة العربية في عصرنا هذا, بحيث أصبح تفسير الظواهر النحوية يقوم على أساس وضعي، فتبين الباحثون في علوم اللسان أن النحو ليس هو الإعراب, إذ أن النحو أشمل, وأعم من الإعراب, وأنه "دراسة للعلاقات التي تربط بين العناصر اللسانية في الجملة الواحدة مع بيان وظائفها

**3 / الاختلاف في منهج القياس:**

من المآخذ التي وجهها المستشرقون في البحث اللغوي العربي مسألة الاختلاف في منهج القياس لدى النحاة القدامى, سواء مع نحاة البصرة المنقيدة "بالقياس على المطرد الغالب في السماع , أو الكوفة التي توسعت في القياس لتشمل القياس على القليل والكثير, والنادر والشاذ، حيث أقروا بأن القياس صعب النحو العربي مما دعا ببعض دعاة التيسير إلى إنكاره, ولكن مع تطور الدرس اللغوي الحديث, وبالخصوص مع دي سوسير، حيث أخذ القياس في دراسته للغة حظا وافرا، وبعد تصريحه بوجود "القياس في اللغة وأكد أهميته وجدواه في إنماء اللغة وحفظها

ةقد فطن بعض اللغويين المحدثين وأعادوا النظر في القياس النحوي العربي لدى القدامى، فتدركوا بذلك أن القياس اللغوي هو تطبيق للنحو وليس نحوا وهو كما حدده إبراهيم أنيس, بأنه "مقارنة كلمات بكلمات, أو صيغ بصيغ, أو استعمال باستعمال رغبة في التوسع اللغوي، وحرصا على اطراد الظواهر اللغوية.

**4 / الاهتمام بالسياق:**

لقد اهتم العرب القدامى بالسياق اهتماما بالغا، حيث أدركوا أن المعاني تتعدد بتعدد احتمالات القصد منها, وقد تابع المستشرقون درس السياق لدى القدامى, ولكنهم لم يضعوا تطبيقاتهم في إطار نظرية متكاملة المعالم.

**التشكيك في قدرة اللغة العربية على تعاملها مع العلوم الحديثة:** لم ينحصر هجوم المستشرقين على اللغة العربية من خلال إثارة الشبهات حول أصالتها في التاريخ القديم, والعصور العربية المختلفة، بل استمر ليطال العربية الحديثة، حيث اتهموها بأنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث، وغير قادرة على مُواكبة التقدّم العلمي والتكنولوجي. ووصل الأمر ببعضهم إلى اعتبار اللغة العربية لغةً ميتةً، مثلُها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوربية الحديثة.

ومن أدباء العرب المعاصرين الذين أيّدوا هذه الفكرة ودعموها صادق جلال العظم مؤلف كتاب: نقد الفكر الديني، وعبدالعزيز فهمي الذي دعا إلى أن تحلّ الأحرف اللاتينية محلَّ الحروف العربية. ومعنى هذا قطع صلة العرب بجميع كتبهم المكتوبة بالحروف العربية.

وفي الواقع هذا ما طرحه المستشرق لويس ماسينيون في البداية، الذي زعم أن ذلك ضرورة للتعايش والتساير مع الحضارة الغربية أو الحداثة ــ كما يقول المفكرون الجُدد.

وقام بعض من هؤلاء بالاستهزاء وتنفير الشباب من اللغة العربية؛ لأنها صعبة الفهم والكتابة من حيث قواعدها النحوية والبلاغية، وأخذوا يحثّون أبناء الشعب العربي خاصة في مصر إلى التمسك باللهجة العامية .

ونقول: ربما تجاهل هؤلاء أن اللغة العربية هي لغة القرآن, ولغة التراث, والفكر الإسلامي الذي يتكلم بها أكثر من ثلاثمائة مليون مسلمٍ، ولا يمكن التخلي عنها بسهوله.